الفـتـح

الـرؤيـا

انتبه رسولُ الله ﷺ مِنْ نَـوْمه على طَـبْعٍ مُرْتاحٍ، وَصَدْرٍ مشروحٍ، وَعَزْمٍ نشيطٍ، ثم دعا إليه بِطَانته وَصَحْبه، فَرَأَوْه جميعاً بارقَ الأسارير[1]، طَلْقَ المحيَّا، وَاضِحَ البِشْر والسرور.

تُرَى ما وَرَاء هذه النفس الراضية؟! وما وَرَاء ذلك الوجه المتهلّل؟! لعل هناك خَبَراً بهيجاً، أو نَبَأً عظيماً.

وما اطمأنَّ بهم المكانُ، وامتلأت بهم رَحْبَة المسجد، حتى أفْضى إليهم برؤيا ضَاءَتْ لها نفوسهم، واهتزَّت منها مَشَاعِرُهم، وغرَّدت خواطرُ آمالهم: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾[2] فاشحذوا عَزْمكُم للسفَر، وخذُوا أُهبتكُم للرَّحيل، وَلْتَـكُنْ غايتُكُم العُمْرةَ وَالطَّوَاف، ولا يَفوتَنَّكُم أنْ تَصْحَبُوا البُـدْن[3]، وتُـشْعِرُوا[4] الهَدْي[5]؛ تكريماً للبيت العَتِيق.

واعتلنت هذه الرؤيا في كل مكان، وتُـنُوقل ذِكْراها في كل وَادٍ، وإذا المسلمون يُـقْبِل بعضُهم على بعض مهنِّئين، فَرِحين مستبشرين.

أليست هذه هي رُؤْيا الرسول ﷺ؟ وما رَأى ﷺ في حياته رُؤْيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح وُضُوحاً، ومثل الشمس المتألّقة بياناً وظهوراً. أليس هذا خَبرَهُ؟

وهم قد عَهِدُوه صادقاً إذا أخبر، غير مُلَـبِّس في قوله إذا بلّغ، إذَنْ هم قد أصبحوا

---

(١) الأسارير: محاسن الوجه.
(٢) سورة: الفتح، الآية: ٢٧.
(٣) بُدن جمع بدنة: وهي ناقة أو بقرة تنحر بمكة قرباناً.
(٤) أشعر القوم: جعلوا لأنفسهم شعاراً. وهنا إسالة دم النعم إعلاماً بأنها مهداة للبيت.
(٥) الهدي: ما يهدى إلى الحرم من النعم.

قابَ قَوْسين أو أدنى من بلدهم الكريم، ووطنهم الحبيب، مَهْوَى الفؤاد، وَمَجْمَع الآصرَةَ والأنداد، وإذَنْ هم عما قريب سيشمُّون هذه التُّرْبة، وَيَنْشَقُون عَبقَ هذا الوطن العزيز. وهم أيضاً في رُؤْيا نبيهم الصادق الأمين، سيطوفُون بالبيت، ويستلمون الرُّكْن، وَيَسْعَوْنَ بين الصَّفَا وَالمَرْوة، وَيَضَعُون أقدامهم حيث وضعها أبوهم إسْمَاعيل وَجدُّهم إبراهيم. وَمَنْ يَدْري؟ لعلَّ الله بعد ذلك يُرْغمُ أنْفُ قريش، وَيُذِلّ أبيَّهَا، وَيَقْهَر حَمِيَّها، وَيُظْهِر كلمةَ التوحيد بين مكة والمسجد الحرام.

وَتَنَفَّسَ الصباح من اليوم الثاني، وهبَّت نسائمه حلوةً عذبة، تُدَاعِبُ آمال قَوْم يسوقون بُدْناً تَسِيلُ بأعناقها البِطَاح، وظهرت تباشيره مشرقةً لَمَّاعة، تبعثُ في عزائمهم النَّشَاط والارتياح، شملهم جميع، وَأمْرُهم حازم، وَشَعْبُهم مُلْتئم، لم يُفَرِّق لَفِيفَهم[١] هؤلاء الذين اسْتَنْفَر لهم الرسول ﷺ، فقالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾[٢]، ولم يَصدَع صَفَاتهم هؤلاء الذين راحُوا يغمزون[٣] الرسول، ويُشيعون قالة السوء بين الناس: ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾[٤]؛ بل سارُوا آمنين مطمئنين؛ يسوقُهم الأمل، ويدفعهم الإيمانُ، ويحصِّد عَزائمهم اليقين.

ولكنهم ما بغلوا منتصفَ الطريق حتى سمعوا بِشْراً الخُزَاعي يتحدَّث إلى الرسول: أي رسول الله، لقد دَلَفْت ـ كما أمرتني ـ إلى قريش، أتندّس[٥] أسرارَها، وأتعرّف أخْبارَها، وما راعني إلاّ أنّ خَبَر مسيرك قد ترامى إليهم، وحديثَ رُؤياك قد هبط عليهم، ولا أدري كيف وقع عليهم الخبَرُ، ولا كيف استنشوا[٦] حديث الرؤيا: «**هِيهِ يا بشر! وبماذا قابلوا هذا الخبر؟ وماذا أعدّوا للقاء**»؟ قال بشر: إنهم يا رسولَ الله قد خرجوا ومعهم العُوذُ[٧] المَطَافيل[٨]، ولبسوا جلودَ النُّمور، وعاهدوا أنفسهم ألا تدخل عليهم مكةَ أبداً.

---

(١) اللفيف: ما اجتمع من الناس من قبائل شتى فيهم أخلاط شتى، فيهم الشريف والدنيء.
(٢) سورة: الفتح، الآية: ١١.
(٣) غمز بفلان: سعى به شراً.
(٤) سورة: الفتح، الآية: ١٢.
(٥) أتندس أسرارها: أتتبع أسرارها.
(٦) نشي الخبر: تخبره وتعرفه.
(٧) عوذ: جمع عائذ، وهي الناقة الحديثة العهد بالنتاج.
(٨) المطفل: ذات الطفل من الإنسان والحيوان.

وهذا خالدُ بن الوليد، وهو من يعدّونه بُهمتَهم، وفارِسَ حَلبتهم، قد خرج يستقبلكُ بخَيْلِه، ولعله الآن في كُراعِ الغَميم[١].

فأرسلها رسولُ الله ﷺ زَفْرة مِنْ قَرَارة نفسه، ثم قال: «**يا وَيْحَ قريش! قدْ أكلتهُم الحرْبُ، وماذَا عليهم لوْ خلُّوا بَيني وبَين سائِر العربِ، فإن هُمْ أصابوني كان ذلك الذي أرادُوا، وإنْ أظْهرني الله عليهمْ دخلُوا في الإسلام وافرِين؟! وإنْ لم يَفعلوا قاتلوا وبهم قوَّةٌ.. فما تظنُّ قُريش؟ والله لا أزالُ أجَاهد على هذا الذي بعثني الله بِهِ، حتى يُظْهِرني الله أو تنفرِدَ عني هذِهِ السالِفة**[٢]، **وماذا يُريد خالد؟ نحن ما خرجنا مقاتلين ولا محارِبين، بل خرجنا مسالمين مُوَادِعين، وما ذاك يومٌ اشتباك القَنَا، ولا تقابل الأقْران. منْ يخرج بنا إلى طريق غَيْرِ طريقهم، ويدفعُ بنا إلى مكان بعيدٍ عن عيُونهم وطلائعهم؟**».

فتقدَّم رجل من أسْلم ـ وكان بصيراً بالطرق: مستدقّاتها ومُنْعَرَجاتها، عليماً بمنحنياتها ولَيَّاتها ـ ثم أمسك بخطام القَصْواء[٣]، وأحْزَن بها في مكان وَعْر وطريق صَعْب، وما زال بالقوم يُجْهِدُهُم ويُضنيهم حتى أفضى بها وبهم إلى طريق سهلٍ فَسِيح.

وساروا وبين جوانحهم قلوبٌ ترْصُد آمالاً، وفي رؤوسهم عيونٌ تَشيم[٤] رَجاءً، والرسول يُحيّي هذا الأمل، ويُضاعِف هذا الرجاء، ولكنهم فجأة لمحُوا أنَّ ناقةَ الرسولِ امتنعت عن السير، ووَقفت في عرض الطريق، عجبًا! لماذا وقفت الناقةُ، أشيءٌ ثنى الرسول عن عَزْمِه، أم أُوحي إليه بأنْ يغيِّرَ وجْهَه؟ لا، لكن هو ذا الرسول يدفع الناقةَ للقيام فلا تَقُوم، ويستنهضها للسير فتمتنع، إذن فقد خلأت[٥] القَصْواء، وما أسرع ما انتشرت هذه القالة، واضطربت الألسنة، حتى دارت بين القوم، ثم عَلمها رسول الله فقال: «**والله ما خَلأتْ وما هو لها بخُلُق، وإنها لذَلُول مِطْوَاع، ولكن حَبسها حابِس الفِيْلِ عن مَكةَ. وإن وراء ذلك لشيئاً، وإن في وقوفها لَسِرًّا، والذي نَفْسِي بِيدِهِ لا تسألني قُريش خطةً يُعظِّمون فيها حُرماتِ الله إلا أعطَيتُهُم إيّاها**». وأدرك رسولُ الله أنه مصروفٌ عن السير، مُوحًى إليه

(١) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة.
(٢) السالفة: جانب العنق.
(٣) القصواء: مؤنث الأقصى من الإبل والشاء وهو: ما قطع قليل من طرف أذنه.
(٤) شام مخايل الشيء: تطلع إليها مترقباً.
(٥) خلأت الناقة: خَرَنَت.

بالتريّث والتلبُّث؛ فأمر القوم أن يتربَّصُوا مكاناً فسيحاً، ويلتمسوا مناخاً رَحيباً؛ فكانت الحدْيبية[١]. وفيها أناخُوا جمالهم، ونَصبُوا خِيامهم، وأقاموا الصُّوَى[٢] والأعلام.

* * *

رجل يُلمَح في الظلام، ويضربُ برجليه في الطريق! انتظروا قليلاً فإنه قادم إلينا، وأغلب الظنّ أنه يقصدنا.

هذا بُديْل بن وَرْقاء الخزاعي. لا بَأسَ بقُدومه، إنه من خُزاعة، وهي مَن عَلِمْنَاها صِدقاً وولاءً، وإخلاصاً ووفاءً، وإنْ كان قادماً من مكة فإنه سيَصْدُقنا الخبر، ويَقْبُسنا أمر قريش.

ولما توسّط بُدَيل جْمعَهم، وتهافَتُوا على حديثه من كل ناحية، وسقطت عليه الأسئلة من كل جانب؛ مِنْ أين؟ وإلى أيْنَ يا بديل؟ هل من مُغرَّبَةِ خبر؟ إنْ كنتَ قادماً من مكة فما حالُ قريش؟ وكيف استعدادُها للقاء؟ وما شأنُ خالد خرج ثم عاد؟

قال بُدَيل: كُفُّوا عن تساؤلكم، وخفّضُوا من لَجَاجكم؛ لستُ مُجيباً عن سؤالٍ، ولا مُطَارِحاً بكلام، حتى ينتهي مقامي عند محمد، ثم أخذ سَمْته[٣] إلى خيمة الرسول، وجلس إليه يَنفْضُ خبَره، ويفتحُ بين يديه عَيْبَة[٤] سِرِّه.

قال: يا محمد، لقد جئتُك هذه الساعة وقريشٌ لا تعلم من أمري شيئاً، ولكني سمعتُ قولاً خشيتُ عليك من عاقبته، ورأيتُ شرًّا وَدِدْتُ عنك دَفْعَه، لقد غدوتُ بالأمس، ـ كدَأبي ـ على قريش في مُتَحدّثهم، فوجدتهم جلوساً، يخوضون في حديثك ويُعيدون، حديثٌ كلّه غيظٌ وسُخْط، وكله حَنَق وحِقْد، وإن أنوفهم لترمع[٥]، وإن قلوبهم لتكاد تتمزَّق، أنْ عِلمُوا أنكَ مُقْبِلٌ وصحبك إلى مكة تَطَأُ حَصَاها، وتجوزُ حِماها.

وانتهى بهم الحديثُ أن أخذوا للحرب عُدّتهم، وشدُّوا أوتارهم، ورَاشُوا سِهَامَهم،

(١) الحديبية: موضع قرب مكة بعضه في الحل وبعضه في الحرم وهو أبعد الحل عن البيت.
(٢) الصُوى جمع صُوة: وهي ما نصب من الحجارة ليستدل به على الطريق.
(٣) السمت: الطريق الواضح.
(٤) العيبة من الرجل: موضع سره.
(٥) رمع: اضطرب وتحرك.

وأقسموا جَهْد أيمانهم ألاّ تدخل عليهم مكةَ أبداً، ثم أشْهَدوا على أنفسهم اللاَّت والعُزّى، وهُبَلهم الأعلى.

وقد خشيتُ عليكَ أن تُؤْخذَ منهم على غِرَّة، أو ينالوك على غَفْلة، فَخُذْ لنفسك ولقومك ما تريد. قال الرسول: «**إننا يا بُديل ما جِئْنَا نتحرَّفُ لقتال، أو نَقْصِد إلى حرب، ولكننا جئنا للبيت زائرين، ولحرُماتِه معظِّمين، وها أنتَ ذا ترى السيوفَ في أغمادها، والبُدْن مُشْعَرة، والقوم معْتَمرين، إن شئت يا بُديل فاحمل إليهم نَبَأنا، وأفصِحْ لهم عن وجوهِ مقاصدنا، لعلّ الله يَحقِنُ بك الدماء، ويُذِيبُ ضغائنَ الصدور**».

وعاد بُدَيْل إلى مكة، فوجد القوم قد عادُوا إلى متَحَدَّثهم، يخوضون في حديث محمد ويُعيدون، هم أقسموا أنْ يصدُّوا محمداً؛ ولكنهم ودّوا لو عاد من غير قتال؛ وهم أخذُوا للحرب عُدَّتهم، ولكنهم تمنَّوْا لو كُفُوا جهدَ الحربِ والكفاح، فهم لذلك اجتمعوا ثانيةً يُجِيلون قِدَاحَ الرأي، ويُصرِّفون طرُقَ الخلاص، وما علموا أن بُدَيْلاً قد وفد على محمد وجاء حتى هُرِعوا إلى لقائه، والاستماع لما عنده.

تعال يا بُديل، هاتِ ما عندك من حديث محمد، أرأيتَ أنَّ محمداً يريد أن يغزوَنا في دَارِنا، ويَغُضّ من عِزَّتنا؟ ألمَ يَكْفِه ما كان من قَتْل صنَادِيدنا، وذَوِي الرأي فينا؟ إنَّ ذكريات عُتْبَة وشَيْبَة وحَنْظلة وابن هشام لا تزال أمامنا، وإن دموعَ الباكيات على ابن وُدّ لا تزالُ تَجْرِي سخينةً حارة، وها هو ذا يجيء اليوم ليعيدها جَذَعة ويُقيمها حَرْباً ضَرُوساً، فما عندكَ؟ وما ترى؟

قال بُدَيل: إنكم تُبْعدون في الوَهْم، وتُسرِفُون في الظن، لقد جئتُ محمداً، وعرفت رَضْخاً[1] من خبره، ومُجْملاً من قَصْده، ثم إني حمّلتُ قولاً، ورأيت شيئاً، فإنْ شئتم بلّغتكم ما حُمِّلْتُ وبصّرتكم بما رأيت.

قالوا: هاتِ ما عندك، وإنَّ لنا وراء قولِك قَوْلاً، وبعد حديثك رَأياً. قال بُدَيل: لقد جئتُ محمداً واستنبأته عن رَأيه، وتحدّثَ إليَّ عن عَزْمِه ونيته، إنه لا يريد بكم حَرْباً، ولا يَبغي عليكم عُدْوَاناً، وإنما جاء مُعتَمِراً، وللبيت طائفاً ومعظِّماً، ولقد أفضى إليّ برأي ارتاح إليه طَبْعِي، ووافق هوًى عِنْدِي، وفيه ـ لو حفظتموه ـ صلاحُ ذاتِ البَيْنِ، وإطفاءٌ

(١) الرَّضخ: الخبر تسمعه ولا تستيقنه.

لِوقْدَة الأحقاد، وسلٌّ لسخائم[١] النفوس: أن تخلُّوا طريقَه للبيت يطوفُ ويعودُ، ثم تهادِنُوه ويهادنكم، وتتركوا شأنَه مع العرب، يظهرُ عليهم أو يظهرون عليه، وأنتم بعد ذلك بالخيار، تدخلون فيما يدخلُ فيه الناسُ، أو تكونون بنجْوة[٢] عن قِتاله، وعافيةٍ من مُعَاداته، وإني لكم فيما أقول مخلِصُ السريرة، أمينُ المغيَّب.

فقالوا ـ إذ سمعوا رأي بُدَيل ـ: هذا رأيٌ قائل، ومذهَبٌ خادع فاسد، إنّ بُدَيلاً يريدُ أنْ يوطئنا العَشْوة[٣]، ويشبِّه علينا وجوهَ الرشد، ويلبِّس صورَ السدَاد، تنصحنا يا بدَيل أنْ نغمِدَ سيوفنا، ونطأطىءَ رؤوسَنا، ونَدَعَ السبيلَ إلى محمد يدخلُ مكة ونحن صاغِرُون أذِلّة؟! إنّ في نصحك لِريقَ الحيّة وسمّ الأساود؟ ألستَ من خُزَاعة وشأنُك مع محمد اليوم معروف، وشأنُ آبائك مع آبائه مشهورٌ، ولِيَخْرَسْ لسانُك، وإياك أن تخوض بعدها في هذا الحديث. قال بُديل: شأنكم وما تفعلون، وغَداً تعلمون. واتجهت عيونُ القوم إلى أبي سفيان، زعيم نَدْوتهم وقائدُ جماعتهم، يعلمون رأيه، ويتعرَّفون ما عنده.

قال أبو سفيان: هذا الحُلَيْس بن علقمة، سيِّد الأحابيش[٤] حاضِرٌ جَمْعنا، وهو حليفُنا، وعليه حقٌّ جِوَارنا، وفوق ذلك فإنَّ له رَأيا يمزِّقُ ظلمات الإشكال، ويَطبِّقُ مَفَاصِلِ الصوابَ، ليذهَبْ إلى محمد رسولاً أميناً، ومبلِّغاً كريماً، لعله يصدُّه عن عَزْمه، ويحوِّلُه عن قَصْده. ولننظر بعد ذلك ما يكون.

ورأى الرسول ﷺ الحُليس مُقبلاً من بعيد، فقال: «**هذا الحُلَيس مُقْبلاً، يظهرُ أنَّ قريشاً قد أرسلته سَفِيراً، وهو من قوم يتألّهُونَ، فابعثوا الهدْي في وجهه حتى يَراه**». وما راعَ الحُليسَ إلا الإبلُ تسيلُ من عرض الوادِي مُشْعَرَةً قد أكلت أوبارها من طولِ ما حبست، فما استطاع أن يتحدَّث حتى عاد إلى قريش مغيظاً، يقول: أيها القوم، بئس والله ما طاش سَهْمُكم، وفَالَ رأيُكم، أتصدُّون عن البيت قوماً أتَوْا مُعْتَمِرين، وله معظِّمين؟ أتحجُّ إلى البيت جُذَام وحِمير، ويُمنع عن البيت ابن عبد المطلب، وله فيكم شرَفٌ يَنْطحُ النجوم،

(١) السخيمة: الحقد والضغينة.

(٢) النجوة: المرتفع من الأرض، وهو بنجوة من هذا الأمر: بعيد عنه بريء سالم.

(٣) العَشْوَة: ركوب الأمر على غير بيان.

(٤) أحابيش جمع أحبوش: الجماعة من الناس اختلفت أجناسهم وأحابيش قريش: جماعة من قريش وكنانة وخزاعة اجتمعوا عند حُبْشي (وهو جبل بأسفل مكة) وتحالفوا هناك.

ولأجداده عِزٌّ يعلو أجنحة النُّسور؟ هلكت قريش وربِّ الكعبة، إن القوم أتَوا مُعْتَمِرين، والله ما على البَغْيِ عاهدناكم، ولا على العُدْوان حالفناكم، لئن صدَدْتَم محمداً عن البيت لأنفِرَنَّ بالأحابيش نفرةَ رَجُلٍ واحد.

قالوا: مَهْلاً يا بن علقمة، وانظُرنا نصنَعُ لأمرنا. وعلا وجوهَ القوم وُجومٌ، وغشِيتْهم حيرةٌ وسكون، ثم أخذوا يُدِيرون حديثاً، فيه مرارةٌ وألم، وفيه حزْنٌ وامتعاض.

ذلك محمدٌ واقفٌ على ثَنيَّاتِ مكَّة، ويوشِكُ أن يدخلَها، حقًّا لقد تعاهدنا على الحرب، وشَحَذْنَا عَزَائمنا للدفاع، ولكن ما غَنَاء الحرب؟ وما فائدة الدفاع؟

إن محمداً يقدمُ علينا اليوم في قوم حارْبنَاهم، واشتبكت القَنَا فيما بيننا وبينهم، فوجدنا فيهم صَبراً على القتال، وجَلَداً على الاستبسال، ما فيهم إلا ابن كَرِيهة، ومانعُ حَرِيم، لقد اخترَمَت المنيةُ أبطالنا، وطَوَّحَت الحربُ بِفْتياننا.

ولقد لقيناهم يوم بَدْر، فكان يوماً مَنْحوساً أغْبر[1]! وحسِبنا أننا هزَمْنَاهم يَوْمَ أُحُد، وخَضَدْنا منهم الشَّوْكَة، ولكن ما أسرع ما اندملَتِ القُروح، والْتأمت الصفُوف، وعادُوا يَوْمَ الخندق أشدَّ ما يكون مَنَعةً، وأعظم ما أوتوا نَصْراً.

وها هم أولاء يعودُون اليوم طالبين بعد أن كانُوا مطلوبين، ومهاجِمين بعد أن كانوا مُدَافعين، إننا لو دافعناهم فأكْبَرُ الظنِّ أن الدائرةَ ستَدُورُ علينا، والهزيمة تأخذ سبيلها إلينا، وإنْ خَلّيناهم يدخلون البيتَ فإنما هو عارٌ نَعْصِب به رؤوسَنا، ومَسبّة نخدشُ بها وجوهَ أحسابنا، لا يكونُ لنا شأنٌ بعدها، إنه لرأي مضطرب، وحيرة جائلة، وأمر لا نَدْري أشرٌّ آخِره أمْ أوله؟

ورآهم نُعيم بن مسعود يضطربُون في حَيْرتهم، ويصطرِعُون في أمرهم، فأراد أن يُدليَ برأي، ويَصْدَع بمقول، قال: أي قريش، لقد علِمتموني من أشرفِ العرب نَسباً، وأبعدِهم مَحْتِداً[2]، وأكرمهم أرُومَةً[3] ونجاراً[4]، ولي في ثقيف رياسةٌ، وفي

---

(١) الأغبر: الذاهب الدارس أو المغبر.
(٢) المَحْتِدْ: الأصل.
(٣) الأرومة: أصل الشجرة، واستعملت للحسب.
(٤) النُّجَار: الأصل والحسب.

الطائف[١] مُلْكٌ، ثم إني ـ وإن كنْتُ بعيداً في الوطن عنكم ـ مِنْ صَمِيمكم، وأجْرِي على عِرْقٍ في أنسابكم، وقد استبطنْتُ سوَادَكم، وتعرَّفْتُ دَخائلكم، وفطْنْتُ إلى أموركم، ولقد جرَّبتموني من قَبْلُ فما اتهمتوني في نصيحة، ولا تعلّقْتُم عليّ بكِذْبة، وتذكرون أنّي استنفرْتُ لكم أهلَ عُكاظ[٢] من قبل، فلما بَلّحُوا[٣] عليَّ، جئتُكم بأهلي وولدي ومَنْ أطاعني وإنَّ لي عليكم مشورةً ورَأياً، وعندي لكم نُصحاً وبياناً، دَعُوني أذهب إليه سَفِيراً عنكم، ورسولاً منكم، أُنَافِثه وأُناقِله، وأجادلُه، فإنْ جئتُ إليكم من عنده بخطَّة فاقْبَلُوا، واعلموا أني سأرْمِي عن قَوْسِكم، وأُصْدِر عن رأيكم، وأرجو أنْ أكونَ موفقاً مَجْدوداً[٤].

فقالوا: إننا يا أخَا ثقيف ما اغتمزْنا فيك رَأياً، ولا عهِدْنا عليكَ كذباً؛ فاذهَبْ حافظاً للأمانة، مُفَوَّضاً فيما ترى.

وجاء ابنُ مسعود إلى الرسول، فوجده في هَالَةٍ من صَحْبة، أجلسوه على عَرْش من قلوبهم، وحاطُوه بسِياجٍ من نفُوسهم، ما يأمُر بأمْر إلا ابتَدرُوا إليه، وإذا تكلّم خفَّضُوا أصواتهم، وإذا نظر غَضُّوا من أطرافهم، وقد وقرت مهابَتُه في الصدور، وارتفعت منزلته في العيون، فتلجلج في مَشْيته، وتردَّد في رسالته، ولكنه جمع نفسه، واستردّ عازِبَ حِلْمه، وشقّ الصفوف، حتى انتهى إلى الرسول. ثم قال: يا محمد، ما هذا الذي جمْعتَ إليه جَمْعَك، وحشدْتَ إليه جُنْدَك؟ أراك قد جمعت أوْشاب[٥] الناس وزُمَر القبائل، ثم غدوت بهم على قومك من قريش، تحاول أن تُذِلهم، وتَنْتَهك حُرمتهم؛ إنها والله لقُرَيش، قد علم الناسُ صدْقهَا عند اللقاء، وصَبْرَها على اللأْواء، وكفاحها في البأساء، هم مَساعِر[٦] حَرْب، وأحْلاس[٧] خيول، ولقد ترامى إليهم أنكَ جئتَ غازياً ديارَهم، قاصداً

(١) الطائف: هو وادي وَجّ وهو بلاد ثقيف.
(٢) عكاظ: نخل بين الطائف ومكة، وهو أقرب للطائف.
(٣) بَلَّحَ: كَلَّ وانقطع.
(٤) جُدَّ: كان له حظ طيب فهو مجدود.
(٥) أوشاب: جمع وشب وهم الأوباش والأخلاط من الناس.
(٦) مساعر جمع مسعر: وهو ما تحرك به النار من حديد أو خشب ويقال هو مسعر حرب: موقد حرب.
(٧) أحلاس جمع حِلس: وهو كل ماولي ظهر الدابة تحت الرجل والقتب ويقال هو من أحلاس الخيل: ملازم لظهورها ورياضتها.

الكَيدَ بهم؛ ألا فلتعلمْ أنهم عاهَدُوا الآلهة ألا تدخلَها عليهم أبداً، وأيْمُ الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عَنْك غداً، وبقيتَ وَحْدَك، فلا أنْتَ تحوَّطْتَ لنفسك، ولا احتفطتَ بقومك، فتدَّبرْ أيّ شرّ أنتَ قادم عليه، وأيّ أمرٍ أنت مُتَصَدٌّ له.

قال له الرسولُ: «**لقد تحدثْتُ إلى بُديل، وتحدثْتُ إلى الحُلَيس، إني ما جئتُ أبْغِي حَرْباً، أو أريد قتالاً، وإنما جئنا معتمرين، وللبيتِ الحرام طائفين ومعظّمين، فإن شاؤوا خَلُّوا لنا الطريق، وإلاّ فإنَّ لنا معهم شأناً، نترقبُ فيه أمْرَ الله**».

وعاد ابن مسعود إلى قريش لم يَلْقَ نجاحاً، ولم يصادِفْ فَلاَحاً، فاستشرفوا لحديثه، وتطلّعوا إلى نهاية سِفَارته، كما استشرفُوا من قبله لبُديل، وكما استشرفوا للحُليس، ولكنهم كانوا لابن مسعود أكثرَ اطمئناناً، وأشدَّ استئناساً، وأطولَ آمالاً، وقالوا: هاتِ ما عندك يا ابن مسعود؛ فلعلك جئْتَ بما يَحْقِنُ الدماء، ويحفظ الذَّماء[1]، ويحمِي البيت، ويحفظُ لقريش مقامها بين العرب.

قال ابنُ مسعود: اسمُعوا يا قوم، والله لقد وفدْتُ على الملوك، وَفدْتُ على قَيْصر في مُلْكه، وعلى كِسْرَى في عِزّه، وعلى النجاشي في عَرْشِه، فوالله ما رأيتُ رجلاً يعظّمه قومُه كما يعظِّمُ محمداً قومُه، ولقد ألْقَوْا إليه بمقاليدهم، وأمْكَنُوه من قِيادهم، وإنهم لا يرجعون له قَوْلاً، ولا يردّون عليه رَأياً، فروَّوا رأيكم واقتدحوا زنادَ عُقولكم، والأمرُ نهايتُه بين أيديكم.

فقالوا ـ وقد أدركتهم الحميَّةُ: إن قريشاً جِسْرٌ لا يُعْبَر، وكنَفٌ لا يوطأ، وعَقَبةٌ لا تُرْتَقى، ودونَ ما يَبْغِي محمد شَيْبُ الغراب، ومُخُّ النَّعام!

الصُلح

قالت قريش: يظهرُ أنَّ محمداً صادِقُ العزم، ماضي العزيمة، وهؤلاء السُّفَراءُ لم يستطيعوا أن يُحيلوه عن قصْدِه، أو يَصْرِفوه عن عَزْمه، أو يخذِّلوه في رأيه. فقم يا ابن مُكْرَز، بما عهدناه فيك من شجاعة وحَزْم، وما بَلَوْناه[2] فيك من قوّة وبأس، واختَرْ لنفسك نفَراً ممن تراه ثَبْتَ الجنَان، صادقَ اللقاء، رابط الجأش، وطُفْ بعكسر محمد،

---

(١) الذماء: بقية الروح من المذبوح.

(٢) بلاه: إختبره.

فلعلك تكسِّر سهامَهم، وتُلْقي الرعْبَ في صدورهم، فينكثُوا ما أمَرُّوا، وينقضوا ما غَزَلُوا.

وفي ساعة من الليل، والظلامُ قد ضرب الرّوَاقَ، وشدّ الأطْناب، أخذ حفص بن مُكْرَز يطوف بعسكر المسلمين، ولكنه ذُعِر فجأة. ثم التفت إلى من معه قائلاً: قفوا يا رِفَاق؟ من هذا الذي يَخفِر أصحابَ محمد؟ تبيَّنوه معي، كأني به محمد بن مسلمة؟ إنه هو؟! أعرفه والله بقامته وسَمْته، وبِشِيَته وعلاماته، وبحذْره ويقظته. أحذروه، فوالله ما هو إلا ليْثُ غَابٍ ومِسْعَر حرُوب، إنه لكالذئب ينام بإحدى مُقْلَتيه، وكالأسد الخادِر[1] إذا كشَّر عن نابه فإن فَتْكه لا يُصَدُّ، وعَزْمه لا يُرْدَ.

وما عَلِموه ابن مسلمة حتى نَخِبَتْ[2] قلوبهم، ومشت الرِّعْدَة في مفاصلهم، وجَبُن الجريء، وخارَ عودُ الشجاع.

وأرهَفَ ابنُ مسلمة أذنه، فإذا هَمْسُ كلام، ووَقعُ أقدام، مَنْ يكونُ هؤلاء غير قريش؟! إذن هم قد أبْدَوْا ناجِذَي الشر، وصَرَّحُوا بالعدوان، وإذن هم يريدون حَرْباً ويبغونَ كَيداً.

أيها القوم، سُلُّوا السيوف من أغمادها، وابْعَثُوا العزائم من رْقَادها، فهذه قريش قد برزت بطلائعها.

ونَشَرَ العزائم، وَأحْمَسَ النفوسَ، وما هي إلا جَولة ونِزَال ساعة، حتى وقع القومُ أسرى في يَدِ المسلمين.

ولكنه ﷺ ما جاء يُذْكِي ضِرَام حرب، أو يُثِيرُ نَوَازِي[3] شر، وإنما جاء مُعْتَمراً، وللبيت مطوِّفاً ومعظِّماً، فما له وللأسرى؟! وما له وللقتال؟!

«أطلقوا سراحَ هؤلاء الأسرى، وفكُّوا أصفادهم، ودَعُوهم يرجعوا إلى أوطانهم، فلعلهم يطمئنونَ إلى وَجْهنا، ويؤمنونَ بغَاياتنا، واذهب أنتَ يا خِرَاش بعدُ في إثر القوم، وتعرَّف ما بنفس قريش، بعد أن أطلقنا أسراهم وتجاوَزْنا عن مساءتهم».

---

(١) خَدَرَ الأسد: لزم عرينه وأقام به، فهو خادر.

(٢) نَخِبَ قلبُه: جَبُن.

(٣) نوازي جمع نازية: الحدة والنشاط.

وذهب خِراش ورجع فقال: يا رسول الله، إنَّ قريشاً ما زالت على مكْرها وحَنَقِها، وما زالت الحفيظة تملأ قلوبَ عامتها، إنهم أذَلّوا وفادتي، وعَقَرُوا ناقتي، ولولا الأحابيش لأطلُّوا دمي.

وسمع هذا رسول الله ﷺ، فأطرقَ، ولكنه لم يتعكَّر صَفْوُ حِلْمه، ولم تُنْتثر قَطاةُ حكمته، بل قال: «**سنُصَابرُ القومَ بالحلم، ونعالجهم بالصَّفْح؛ فلعلَّنَا بهذا نستلُّ سَخَائم صُدُروهم، وننْزعُ الغِلَّ من قلوبهم، وربما كان قد هانَ عليهم أمرُ خراش، واستخفوا بالسفير من خزاعة، فقُمْ يا بْنَ الخطاب، فإنَّ فيك رَأياً وعقلاً، ولك في قريش منزلةً ومقاماً، اذهب إليهم وناضِلْ عن قَصْدنا، واشرح ما غُمَّ عليهم من أمرنا، وما لُبِّسَ من مسألتنا**».

قال عمر: أي رسول الله، سَمْعاً لقولك، وطاعةً لأمرك، ولكني أخافُ هؤلاء القوم على نفسي، ولا آمَنُهم على حياتي، وليس فيهم إلاّ مَنْ يُضْمر لي حَسِيكة[1]، أو يخفي ضِغْناً وغِلاّ، وقد نزح عن مكة مَنْ كانَ يشدُّ ظهري من بني عديّ، فليس من يحميني أو يدفع الشّرَّ عني، ولكن هذا عثمان بن عفان، لا يزالُ لهُ في مكة من أميَّة رَحِم، ولا يعدم أن يصادفَ عندهم حامياً، فهناك معاوية، وأبو سفيان، وهناك عُقبة، وَأبَان، وحَسْبُهُ منهم حُمَاة!

سمعَ أبَانُ بن سعيد طارقاً يقرَعُ البابَ، فخرج فإذا هو عثمان بن عفان، قال: مرحباً بك يا ابن عمي، كيف جئتَ في هذه الساعة وخَلّفْتَ صاحبكَ محمداً؟!

قال: لقد قدمتُ سفيراً عنه، ورسولاً من عنده إلى قُرَيش، أبيِّن لهم ما خفيَ عليهم من أمره، وأكْشفُ القِنَاع عن قَصْده، فلعلَّ الأفهام تتقاربُ، والأرواح تتعارفُ، ولكنني أخافُ على نفسي الإيذاء، وأتوقع من قريش المكْروه، فاقبلني في جِوَارك، وأدْخِلني في حِمَاك، بما بيننا عن عَصَبٍ مُشْتَبِكٍ ورَحِمٍ ماسَّة.

فَغَدَا به أبان على الرؤساء من قريش، وقال: هذا ابنُ عمي عثمان بن عفان ورسولُ محمد، يحملُ رسالته، ويُرِيد أن يلقي إليكم كلمته، ثم هو في جواري وحِمَاي...

فقبلوا جِوَاره ولكن على مَضَض، واحتملوا ظله ولكن على كره، ثم قالوا: أمَّا أن يدخلَ محمدٌ مكة، ويطوفَ بالبيت، فدون ذلك عِزَّة تملأُ نفوسنا، ونخوةٌ تدوِّي

---

(١) الحسيكة: الحقد والعداوة.

في جوانحنا، ولكنك إن أرَدْتَ أنتَ الطوافَ فدونك وما تريد.

فتأذَّن[١] عثمان: ألاّ تطأ قدماه البيت ما دام محمدٌ ﷺ ممنوعاً، وما دام المسلمون يُحَالُ بينهم وبين ما يشتهون! وانطلق إلى المُسْتَضعَفين من المسلمين الذين مُنِعُوا الهجرةَ وهمَسَ في أذانهم: إن يوم الفتح قريب، وساعة الخلاص آتية.

وبلغ قريشاً قولُ عثمان فخافوا الفتنةَ وحبسوه. وبينما رسول الله ﷺ يرقُبُ بريدَ النجاح، ويَشِيمُ مخايلَ الرَّجاء، جاء نبأ أن عثمان قد قتل، واستطارَ هذا الخبرُ في المسلمين، وتُسُومع في خيامهم، فَذُهِلوا وَوجِمُوا، ثم ثارُوا وسخطوا، ثم شَمَّروا عن سواعدهم للقتال واستعَدُّوا.

أما رسول الله ﷺ فقد وقفت آمالُه من السِّلم عَلَى شَفَا اليأس، وكادت تقَطَع أمام عينيه خيوط الرجاء، وأعلن للمسلمين أنْ لا بَرَاحَ من مكانه، حتى ينَاجِزَ القوم الحرب، وجلس إلى شجرةٍ ينظرُ ما يكونُ من عَزْم المسلمين.

جاءه أبو سنان الأسدي وقال: امْدُدْ يدكَ أبايعكَ يا رسول الله، قال: «**علام تبايعني يا أبا سنان**»؟ قال: على ما في نفسك يا رسول الله، من تَفْدِية للنفس، وبذل للروح، وما شئت من صبر واستبسال، وجِلاَدٍ وكفاح.

وتابعَ المسلمون أبا سنان، ورضي الله عنهم، وعلم ما في قلوبهم، وأنزلَ السكينة عليهم، وَوَعَدَهم فتحاً قريباً.

* * *

المسلمون قد استعدوا للقتال، وشهروا سيوفهم للحرب، وإنهم لكذلك إذ رأوا رجلاً يَقْدُم نفراً... من هذا الرجل؟!

ثم أخذوا يديرون فيه الطَّرْف، ويتعَرَّفون الشخص؛ وصاح أحدهم قائلاً: أنا أعرفُ الأرْنَب وَأذنيها، ذاكم سهيل بن عمرو، وانطلق يَعْدُو إلى النبي. فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنْ كانَ سهيل بن عمرو حقًّا فقد أرَاد القومُ الصلحَ، فإني أعْرفه كيِّساً**[٢] **حَصِيفاً، فطِناً لبيباً**».

(١) تأذن: أقسم.
(٢) كيّساً: فطناً.

وصدق حَدْسُ الرجل في سهيل، وصدق رأيُ رسول الله ﷺ في نِيَّة القوم، فقد قال سهيل حينما جلس إلى الرسول: يا محمد، إنه قد بلغنا خَبرُ البيعة، جملتها وتفَاريقها، وإنَّ قريشاً قد اسْتَوْبَلوا[١] عاقبةَ أمرهم، ونِدِمُوا على ما وقعَ بأيدي أشرارهم، وعثمانُ لم يُقْتَل، ولكنه حُبِسَ، وما حُبِسَ إلاَّ عن حلم طائش، وَرَأي فائِل.

وقد جئتُ رسولاً من قريش، رسولَ موادَعَةٍ وسلام، وصُلْح وَوِئَام، عَلّنَا نُضَيِّقُ مسافةَ الخلف، ونسكِّنُ فَوْرَةَ النفوس، وعثمانُ بعد ذلك بين يديك.

ورسول الله ما بَرِحَ يَبغي السلام، ويُرِيدُ الوئام، ويتجَنَّبُ ما فيه إرَاقة الدماء، ويجيبُ إلى كل ما يُعَظِّمُ حُرمات البيت الحرام... ألم يرْسِلْ لهم بُدَيلاً وخراشاً وعثمان في سبيل هذا الصلح؟!

ألم يحدث نُعَيماً بما لا يَدَع في نفس متردّد خَيْطاً من الشك، أو يتركُ في الأفق غيمةً من الرَّيْبِ؟! وقريش قد ثابت إلى رُشْدها، واستفاقت من سَوْرَةِ حُمْقها، ومَدَّتْ يدها للصلح، وأرسلت رسولها للسلام، فتعال يا سُهيل نَتَّبِذْ مكاناً نتحدثُ فيه عن شأنِ هذا النزاع.

ومكَثَ رسول الله ﷺ وسهيلاً ساعة يَتَنَاثَّان[٢] الحديث، ويتنافثَانِ الكلام، ثم طلعَا على القوم بما انتهيا إليه: أنْ يرجع المسلمون بغير عُمْرَةِ هذا العام، فإذا كانَ العام المقبل جاء النبيُّ ﷺ وأصحابه إلى مكة، وقد خَلْتها قريش، فيقيمون فيها ثلاثاً يَعْتَمِرُون، وليسَ معهم من السلاح إلا السيوف في القُرُب[٣]، وأن تضعَ الحرب بين الفريقين أوْزَارَها عشر سنين، ومن جاء إلى المسلمين من قريش يُرَدُّ عليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون رَدّه، ومن أرَاد أنْ يدخلَ في عهد قريش دخلَ فيهِ، ومن أرَادَ أنْ يدخل في عهد محمد دخلَ فيه.

* * *

(١) استوبل الشيءَ: عَدَّه وبيلاً وهنا بمعنى سوء العاقبة.
(٢) نَثَّ الخبر: أفشاه، تَنَاثَّ القوم الأخبار: أفشاها بعضهم إلى بعض.
(٣) قُرُب: جمع قِراب، وهو غمد السيف.

وما علم المسلمونَ بهذا العهدِ حتى حَصِرت[١] صدورُهم، وأقبلَ بعضُهمْ عَلَى بعض يتساءلون: إذن فلسنا بمعتمرينَ هذا العام؟! فقد نَفَذَ سهْمُ قريش في حُلوقنا، وارتفعت كلمتهم فوقَ كلمتنا، ونَالُوا منَّا ما يُريدون!! كيفَ ترُدُّ من جاءَنا مسلِماً، ومن جاءَهُمْ منا مُرْتداً تركْنَاهُ؟! إن هذا لأمر يضطربُ فيه رَأْيُنَا ويتيهُ فيه رُشْدنا.

أما عمر فقد نبضَ نابضُ الغَضَبِ في قلبه، وغَلاَ مِرْجَل الغَيْظِ في صدره، ولم يلبث أن وَقَفَ على أبي بكر، وقال: نَشدتُكَ الله يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أوَلَسْنَا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوَليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نُعْطي الدَّنِيَّة في دِيننا؟! فقال أبو بكر: يا عمر، الزَمْ غَرْزَه[٢]، فإني أشهدُ أنه رسول الله.

قال عمر: وأنا أشهدُ أنهُ رسولُ الله، ولكني أشهدك أيضاً أني منذ الساعة التي رَأيتني فيها مسلماً بدارابن الأرْقم، ما شكَكْتُ إلا الساعة، ولا اضطربت في قلبي العَقِيدة إلاَّ الآن، وقد تخالجني الرَّيْبُ، وأخَذَت تَدِبُّ في صدري عَقارِبُ الظنون.

قال أبو بكْر: لا دَوَاء لما قامَ بنفسك، ولا مُهَدِّىء لفورة غضبك، إلاّ أن تبسط خَوَالج نفسك بين يدي رسول الله ﷺ، فدونكهُ كلِّمهُ، وما بينك وبينه حجاب.

وعمرُ بن الخطاب طَبَعهُ الله سَلِيمَ الفطرة، طاهِرَ السَّرِيرَة، نقيّ الضمير، لا يُبَالي أن يَجْهَرَ بما يعتقده، وأن يُعْلِنَ الرَّأيَ الذي يراه، لا يخشى في الحقِّ لَوْمَةَ لائم، وإن خالف ـ فيمَا يظنُّهُ الحق ـ رسولَ الله.

وبهذه النفس الكَريمة الصافية، وبذلك الإيمان الصادق المتين، حادَثَ رسول الله، وقال: ألست برسول الله؟ قال: «**بلى**». قال: أوَلسنا بالمسلمين؟ قال: «**بلى**». قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «**بلى**». قال: فعلام نُعْطِي الدنيَّةَ في دِينِنَا؟! فقال ﷺ: «**أنا عبْدُ الله ورسوله، لن أخالف أمْرَهُ، ولن يُضَيِّعني**».

قال عمر: أولستَ كنت تحَدِّثنا أنا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال: «**بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام**»؟ قال: لا. قال: «**فإنك آتِيه ومُطَوِّف به**».

---

(١) حصرت: ضاقت.

(٢) الزم غَرْزَ فلان: أمره ونهيه.

فوجدت هذه الكلماتُ سبيلاً إلى وَقدة غيظه فسكّنتها، وإلى خوالج الشك من نفسه فانتزعتها.

وجلس رسول الله ﷺ وسهيلاً، وَدَعَوْا عليًا ليكْتُبَ العهد، فأصلح لِيقة[1] دَوَاته، وَأعَدَّ قلمه، وتهيأ للكتابة.. اكتبْ **«بسم الله الرحمٰن الرحيم»**. فقال سهيل: هذه فاتحةٌ لا أعرفها، وعبارةٌ لا أستريحُ إليها، ولكن ليكتُب «باسمك اللهم»، فكَتب عليٌّ، ثم رفعَ القلم يَسْتَوحي عبارةَ العهد من رسول الله، فقال: اكتب: **«هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سُهيلَ بن عمرو»** فأمسك سهيل بقلم عليّ، وقال: لا تفعل؛ ثم التفتَ إلى رسول الله، وقال: لو شهدتُ أنكَ رسول الله ما قاتلْتُكَ، ولكن اكتب اسمك واسمَ أبيك.

قال النبي ﷺ: اكتب: **«هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه سهيلَ بن عَمْرو؛ اصطلحَا عَلَى وَضْعِ الحربِ عشر سنين، يَأمَنُ فيهَا الناس، ويكُفُّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذنِ وَليِّه رَدَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردُّوه عليه، وأنه بيننا عَيْبَةٌ[2] مكْفوفة، وأنه لا إسْلاَلَ[3] ولا إغلاَل، وأنه من أحبَّ أنْ يدخلَ في عَقْدِ محمد وعهدهِ دخلَ فيه، ومن أحب أنْ يدخل في عقد قريش وعهدهم دخلَ فيهِ، وأنَّ محمداً يرجع عامَه هذا فلا يدخل مكة، فإذا كان عام قابل خرجت منها قريش، ودخلها بأصحابه، فأقام بها ثلاثاً، معه سِلاَحُ الراكب، السيوفُ في القُرُب»**.

وفرغ عليٌّ من الكتاب، وشهد عليه رجالٌ من الفريقين وقرأه المسلمون؛ وكأنما دُفِعُوا به إلى أمرٍ عظيم ليس لأحد منهم فيه يَدَان.

وبينما هم في تلك الحيرةِ إذ بَصُرُوا برجل مُنْفلت إليهم يرسُفُ[4] في الحديد. ويئنُّ تحتَ أغلاَلِ القيود... لم يكُن هذا الرجل إلا أبا جَنْدَل بن سهيل، جاء صارخاً فَزِعاً، مُستَجيراً بالرسُول مُستَنْصراً؛ وقال: يا رسول الله؛ لقد وَصَلَتْ إليَّ دعوتك فأسلمتُ، وبلغني قرآنك فآمنت، ولكن ما عرفَتْ قريش أني صَبَأتُ عن دينهم، ومَرَقتُ عن آلهتهم،

---

(١) الليقة: صوفة الدواة، أو إذا بُلّت.

(٢) العيبة من الرجل: موضع سره.

(٣) الإسلال: السرقة.

(٤) رسف في القيد: مشى فيه رويداً.

obeikandl.com

حتى أوْسَعُوني كيداً وتعذيباً، وزادُوني رَهَقاً وتنكيلاً؛ وكم حاولتُ أن أهاجِرَ إليك، فسَدُّوا في وجهي المسالك، وكم حاولت أن أرْحَلَ عن مَكَّتهم، فحالُوا بيني وبين ما أريد، حتى خِفْتُ أن أفْتنُ في ديني، وَأوذَى في نفسي، وأنتَ تراني الآنَ مُقَيَّداً مغلولاً، فخذني إليك مهاجراً مسلماً، مجاهداً في سبيل الله مُقَاتلاً.

ورأى سهيلٌ ابنه، وسمع قوله، فَسَهم وَوَجِمَ، ولكنه قال: يا محمد؛ لقد انتهينا من العَقْدِ قبل أن يأتيكَ هذا، وإذن فليس هناك ما يحول دون أن أردَّه إلى مكة، راضياً أو ساخطاً، طائعاً أو مكرهاً.

قال رسول الله ﷺ: «**صدقتَ ولك ما تريد**». وأخذ سُهيل أبا جندل ولبَّبَه[1] بمخَنَّقه[2]، وجَرَّه من عنقه، ودفعه إلى مكة، فأخذ يصيح: يا معشر المسلِمين، أأرَدُّ إلى المشركين يَفْتِنُونني في ديني؟

فنفذت هذه الصيْحَةُ إلى أعماق النفوس، ولمست قرارةَ القلوب، وهزَّت أوتارَ الحزنِ والأسى، ولكن ما يَصْنَع المسلمون، وذلك قضاء الله، ورسولُ الله إنما يصدرُ عن أمر الله؛ على أنَّ رسول الله ﷺ طمأنَ أبا جندل وقال: «**يا أبا جندل، اصبرْ واحتَسِبْ؛ فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستَضْعفين فَرَجاً ومخرجاً؛ إنا عَقَدنَا بيننا وبين القوم صُلْحاً، وأعطيناهم وأعطونا عهداً أنا لا نغدِرُ بهم**».

* * *

ثم صاح صائح في أحياء مكة: مَنْ أراد أن يدخلَ في عهد أحدِ الفريقين فليدخلْ، فتواثَبَتْ بكْرٌ ودخلت في عهد قريش، وتواثبت خُزَاعة ودخلت في عهد المسلمين.

ثم نادى المنادي عن رسول الله ﷺ: لقد قُضيَ الأمرُ وعُقِدَ العهد، فتحلّلوا من إحرامكم، وانحَرُوا بُدْنكم، واحْلُقوا أو قَصِّرُوا شعوركم، ثم شدّوا إبلكم للرحيل.

والتفت المنادي فإذا نفوسٌ مُعْرِضَةٌ، وعزائم متردِّدة، وعيون زائغة، وقلوب حائرة؛ وصاح الثانية فلم يُجِيبوا، ودعا الثالثة فلم يلبُّوا!!

---

(١) لبَّبَ الرجل: جمع ثيابه عند نحره في الخصومة ثم جره.

(٢) المخَنَّق: موضع حبل الخنق من العنق.

فانطلق إلى النبي ﷺ يحدثه في أمر هذه النفوس التي ما تعودت إلا تلبية الدعاء؛ وما عُهِدَ فيها استخفافٌ بالنداء. . . فكَبُرَ الأمرُ على الرسول، ودخلَ عَلَى أم سلمة مُطْرِقاً مهتماً! قالت: ما خطبُكَ يا رسول الله؟ قال: «**هلك القومُ؛ دعوتُهم للإحلالِ والحلقِ والنَّحْر فلم يُجِيبُوا**».

قالت: يا رسول الله؛ إن لهم فيكَ لأسْوَة حَسنةً وقدْوَة كريمةً، فاخرج إليهم، وانحَرْ واحلق، وما أظن إلا أنهم سيسيرون في نهجك، ويقَلِّدُونك في فعلك.

خرج رسولُ الله ﷺ إلى الناس يقول: «**أمَّا ما أهمكم من العَهْد، فإن من ذهب إليهم منا فلا حاجة لنا به، ومَنْ جاءنا منهم فسيجعل الله له فَـرَجاً؛ وأما البيتُ فإنكم إن شاء الله مُـطَوَّفون به في قابِل، وما فعلتُ ما فعلتُ عن أمْرِي، وإنما عن أمر الله، وهو نَصِيري ولن يضَـيِّـعَني**» ثم دعا الحلاّق فحلَق، وعمد إلى البُـدْنِ فذَبح، وتحلّل من الاعتمار.

وما سمع القومُ قولَ الرسول ﷺ، وما رَأوْا أفعاله، حتى لاَنَتْ عَرِيكَتُهم، وثابت إليهم حُلُومُهم[1]، وطابت نفوسُهم، وأقبلوا على رُؤوسهم مُحَلِّقين ومقصِّرين، ثم نحروا البُدْن وتحلّلُوا من الإحرام، وانكَفَئُوا إلى المدينة رَاجِعين، لم يَمْسَسْهُمْ سوء، ولم يُصَابُوا بأذى، ولكنهم ما برحوا عِطَاشاً إلى مكة، متشَوِّقين إلى البيت، وهم بين هذه اللّهفة وهذا الاشتياق ظَلُّوا ينتظرون قضاء الله.

نقضُ العهد

وعاد المسلمون إلى المدينة مَوْفُورين، وانقلبوا إلى دُروهم آمنين، ولكنهم لم يطوفوا بالبيت كما كانوا يَطْمَحُون، ولم يَنْشَقُوا عَبِير الوطن كما كانوا يتشوَّقون، تغشى وجوههم حَيْرَة، وَيَـبْدُو في معارفهم الوُجوم.

أجل! إنَّ رسول الله ﷺ وعدهم أنهم لا بدّ داخلون مكة، طائفون حَوْلَ البيت، ووَعْدُه صِدقٌ وقولهُ حق ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾[2]، وما يبلِّغُ إلا عن رُوح أمين، ولكنَّ

(١) الحِلْمُ: العقل.
(٢) سورة: النجم، الآية: ٣.

لواعِجَ الشوق إلى البيت، وتبارِيحَ الحنين إلى الوطن، والرغبة في القتال والجهاد كلّ ذلك أقلق نفوسَهم، وأقضَّ مَضَاجِعَهم.

لقد كانوا قبل اليوم أحسنَ حالاً، وأعزَّ شأناً، وأقوى سلطاناً؛ أما اليوم فواحَرَبَاه! مَنْ جاء إلى المدينة من قريش، راغباً إلى الإسلام، زاهداً في عبادة الأصنام، لا يجدُ فيها ظلاً ولا مَقِيلاً، ولا يستطيع أن يُنزلَ فيها رَحلاً، أو يَشُدّ طُنُباً، فالعهد المأخوذ يردُّه إلى مكة، والميثاقُ يرجعه كاسِفاً بين الكُفار، وما يأمنُ من أنْ يَفْتِنُوه في دينه، أو يضيّقوا عليه في عبادته، أو ينَالُوا منهُ فِي بَدَنِهِ وعافيته. وَمَنْ ذهبَ إلى الكُفّار منا مرتَدًّا عن الإسلام، صابئاً عن كلمة الإيمان، فليس للمسلمين عليه سلطان، وليس لإرجاعه إليهم سبيل!

ثم إنهم ما كادوا يَنْسَوْن يوم أبي جنْدل، حينما جاء مؤمناً يَرْسُف في القَيْد، مُسْتَجيراً يطلبُ المُجير، فلم يَجِدْ مُعيناً ولا مُجيراً، ولم يلْقَ وَلِيًّا ولا نصيراً، حتى هَيَّأت الأحداثُ أمراً جَديداً، مزَّقَ خيوطَ النسيان، وجدّد الأسى، وبعث كامنَ الآلام؛ والأسى يبعثُ الأسى، وَبَعِيد الهَمِّ يَنشرُ دَانِيه.

ذاك أبو بَصِير قدم إلى المدينة زائغَ البصر، واجفَ القلب، مستطارَ الفؤاد، وفي رجليه أثَرٌ من قَيْد، وفي يديه سِمَةٌ من غُلّ!

قالوا: لا تُرْع يا أبا بصير، وَلْيُفْرِخْ رَوْعَك، وليهدأ بالك، ما بك؟ وما شأنك؟ ولم اضطرابك؟ وفيم قُدُومك؟

قال أبو بَصِير ـ وقد عاد إليه الاطمئنانُ، وسكن في نفسه طائِرُ الأمان ـ: اسمعوا، لقد هاجر محمدٌ عن مكة، وما كان أبغضَ إليّ من دَعْوَتِه، ولا أثقَلَ على نفسي من رسالته، وكنتُ أحسبُهُ خارجاً عن قومه، متجنِّياً على عشيرته، حتى أُتِيحَ لي مرةً في إحدى سبحاتي بالليل أنْ سمعتُ رجلاً يَتْلُو شيئاً من الكتاب الذي جاء به، فوجدتُ في طَبْعِي إليه ارتياحاً، وله في نفسي قَبُولاً، فأسلمتُ وأزمَعْتُ الهجرة إليه، ولكني ما جهرتُ بإعلان ما اعتقدتُ، وما عرفوا ما اعتزمت حتى وضعوا في رِجْلي القيود، وَصَفَّدُوني تحت أعيُنِ الرُّقباء، وَلَقيتُ من صنوف البلاء والأذى ما يَنُوء به كَاهِلُ الشجاع، ولكنني في ساعة مِنْ غفلتهم، واشتغالهم بشؤونهم حَطَّمتُ قَيْدِي، وَفكَكْتُ أسْرِي، وَفَرَرْتُ بنفسي وَدِيني، لأشرككمُ في الحظوة، وأكون معكم في الجهاد.

قال ذلك أبو بَصِير، وحسب أنه قد زالت عنه همومُهُ وأحزانُه، وأقبلت عليه أيامُ دهْرِه، وَظَنَّ أنه من اليوم سيعبد الله كما يريد، ويتوجَّه إليه متى شاء، وما دَرَى أن هناك عَهْداً يحولُ بينهُ وبين ما يريد.

وأخذ سبيلَه إلى الرسول، وقبل أن يتشقَّق الحديث وجدَ اثنين من قريش سبَقَاه إليه، كانا قد جاءا في أمْرِ أبي بصير يَسْتعدِيَانِ عليه الرسول، ويذكِّرَانه العَهْدَ والميثاق. قال أحدهما: يا محمد، ما عرفناك غَادِراً صغيراً، فكيف بك كبيراً، هذا أبو بَصِير قد أبَق عن دِيننا، وانسلخ عن جَمْعِنَا، وجاءك فارًّا، وقد عاهدناك أنْ تردَّ مَنْ جاءك مِنَّا مسلماً، وتدفع إلينا من التجأ إليك فارًّا، وقد أوفدتنا قريش لتَرَى مقدارَ قيامك على العهد، ورعايتك للميثاق.

قال رسول الله ﷺ: «**ما نقضتُ العهد، ولا حَنِثْتُ في اليمين، ودونكما الرجل فَخُذَاه، ولعلَّ الله يجعلُ لهُ مِنْ أمْرِه يُسْراً وفي دينه فرجاً**».

ومضى أبو بَصِير أسيراً بين سَمْعِ المسلمين وَبَصَرِهم، ويشيِّعُونه بنفوس مِلْؤُها الأسى، وقلوبٍ حَشْوُها حزنٌ عميق، ولكَنه لم يبعد في السير طويلاً حتى رأوه قادماً! قالوا له: أين غَرِيماك؟ قال: لقد قتلْتُ أحدهما وألجأْتُ ثانيهما إلى الفرار.

ولقد وَفَيْتُ بذمةِ الرسول ﷺ، وَبَرَرْتُ بما قام به من عَهْدٍ ولا عليَّ أن أقِيمَ بينكم! قال رسول الله ـ وقد بلغه صَنِيعَ أبي بصير ـ: «**وَيْل أمه مِسْعَرُ حرب لو كان معه رجال، ولكن لا بقاء له في المدينة؛ فأيّ أرضٍ يذهب يجِدْ مراغماً، وفي أي مكان يَصلْ يَلْق الله**».

وخرج أبو بَصِير ـ كما خرج في المرة الأولى ـ كاسِفَ البال، سَاهِمَ الطَّرْف، مُلْتَاع الفؤاد، حائراً أينَ يذهب؟ وخلّفَ وراءه ـ كما خلّف في المرة الأولى ـ نفوساً ثائرة، وأفئدةً تنطوي على هَمٍّ طَوِيل.

* * *

ومضت أيام، وتصرّمت شهور، وكلما تذكر المسلمون ما هم فيه من أمر قريش ـ من عَهْدٍ جائر، وظلمٍ واقع ـ سالت نفوسُهم أسًى، وَصَعِدت أنَّاتُهم حسرة وأسفاً، حتى هبَط عليهم في المدينة قرشيٌّ جديد.

قال أحدُهم: هذا مسلم فارّ، ومؤمن مُسْتَجِير؛ إنه قدم ليجدِّدَ الأسى، وَيَضَعَ الإصبع في جُرْحٍ لا يزال وَجِيعاً.

وتقدَّم إليه آخر، وقال: أمسلماً جئتَ يا هذا؟ إنَّ المدينة ليست بدارك، ولا محطًّا لِرِحَالك، ولا موضعاً لأمانك، لقد علمتَ أنَّ بينكم وبين الرسول عهداً ألا يَحمي قرشيًّا مسلمٌ، وألاّ يُؤوِي عنده رجُلاً منكم، وإنه لقائم على العهد، أمين على الميثاق، لئن طال مُقامك لتُوشِكَنَّ قريش أن تُرْسِلَ في أثرك، فلا تستطيع فِكَاكاً، ولا تملك لنفسك حَوْلاً ولا طَوْلاً؛ فخيرٌ لك أن تطلبَ داراً غير المدينة، وحِمًى غير هذا المكان، ونرجُو الله أن يجعلَ لك فَرَجاً قريباً.

فضحك الرجُلُ وَأَغْرَب[1]، ثم قال: إنكم حَزَرْتُم فأخطأتم، وتوهمتم وما صَدَقْتُم، لستُ مسلماً حضرت، ولا فارًّا التجأت، وما ابتغيت عن دين قومي ديناً، ولا اتخذت غيرَ مذهبهم مذهباً؛ ولكن جئتُ محمداً في أمر، والإفصاح عنه رَهِينٌ بِلُقْياه.

قال المسلمون: ما هذا الأمر الذي دَفع قريشاً إلى أن تُرسِل هذا الرسول انطلقوا لننظرَ ما يقول. ولما دخلوا المسجدَ وجدُوا الرجل يتحدّث إلى الرسول بعبارات مطمئنة: لقد أرسلتني قريشٌ فيما حَزَبها من أمرِ أبي بَصير، وما يترّصد لها من النكال؛ لم يَكْفِهِ أن قَتل غِيلةً وغَدْراً رجلاً من خير رجالنا، وفتًى من أشجع فُرْساننا، حتى وثب إلى سِيف[2] البحر فاتخذه مَقَرّاً. يلجأُ إليه كلّ هارب من قريش، ويُقيم عنده كلُّ مسلم لا تتسعُ لدِينه جَنَباتُ مكة... وما كان يهمّنا أمرُهم، أو نعبأ بجمعهم، لولا أنهم أقاموا علينا حَرْباً، وسلُّوا دوننا سَيْفاً؛ وهم لا يسمعون بقافلةٍ منّا تذهبُ إلى الشام أو ترجع إلى مكة، حتى يُناوئوها في سيرها، ويبدِّلوا أمْنَها خوفاً، ويُوسِعُوا رجالها رعباً وفزعاً؛ ولسنا نرى ـ دَفْعاً لشرهم، أو رَدّاً لجماعتهم ـ إلا أنْ تعفينَا من شرط أخذناه على أنفسنا، وحسبناه خيْراً لجماعتنا، فإذا هو بلاء وشَرّ، وإذا هو محنة وعَنَاء، فلتضمّ إليك مَنْ جاءك منا مسلماً، أو خرج عنا فارًّا.

وسمع المسلمون هذا العَرْضَ من قريش، فأزاحوا بعضَ الهمِّ عن نفوسهم،

(١) أغرب في الضحك: بالغ.
(٢) السَّيف: ساحل البحر.

وارتاحت ـ هَوْناً ما ـ ضمائرُهم، وانْسَلَتْ عنهم بعضُ همومِهم، وعادوا أخفَّ أحزاناً، وأيسر بَلْبالا[١]، وأشدّ اطمئناناً.

ولكن كلما مضى الزمن اشتدّ نزوعُهم إلى البيت، يشوقَهم إليه لامعُ البرقِ، ويهيج حَنِينهم وافِدُ النسيم. أجَلْ! إنَّ قريشاً قد وفَتْ بعدها، وبرَّت بيمينها وأخْلَتْ للمسلمين مكة في أيام الحج، فدخلوها معتمرين، وطافُوا بالبيت معظِّمين، ولكن هي إلمامةُ ما أشبهها بإلمامه الطيف، وزَوْرَة[٢] ممزوجة بالخوف: يطوفون وعيونُهم تتلفّتُ إلى الوراء خوفَ الغَدْرِ، وقلوبُهم تتوجَّس حذَر المكر، ثم هم ممنوعون بعد ذلك أن يَسلُّوا سَيْفاً، أو يُقيموا عليهم حَرْباً، أو يُثيروا قتالاً.. لو طال بهم الأمر على هذه الحال فأكبَرُ الظنّ أنّ همّهم سيطول، وحُزْنَهم سيستمرّ.

* * *

وانفلت فريقٌ منهم يوماً من صلاة العشاء، والتجئوا إلى سَقِيفَةٍ لهم يَسْمُرون ويتحدثون؛ أخذوا يتذاكرون سِقَاط الحديث، ويتشقَّقُ بهم القولُ في كل مجال، حتى انتهوا إلى الحديث فيما كان بين خُزَاعة وبَكْر من عِدَاء، وما سال بين هذين الحيَّيْن من دِماء. قال واحد منهم، وكان أخْبارياً حِدْث[٣] ملوك: إن عندي من قديم أخبارهما، مالوا نفضتُه عليكم لاجتذب أسماعَكم، واستهوى ألبابَكم؛ لولا أن التَّهويم[٤] قد ابتدأ يلعبُ بأجفانكم، والنوم يأخذُ سبيلَه إليكم.

قالوا: لسنا قائمين إلى فِراش، أو ذاهبين إلى رُقاد، حتى تحدِّثَنا بأخبارك، وتَروي لنا من مكنون رِوايتك.

قال: لقد حدّثني أبي فيما كان يحدِّثُنا به في ليالي سَمَرِه، أنه لم يكن بين الحيين في قديم عَهْدِهما إلاّ صِلاتٌ موثّقة العُرَا، متينة الأسباب، يتزاوَرُون ويُصهرون، ويسافرون ويتَّجرون، وكم مرة كانوا أحلافاً على غيرهما، وكانوا نصراءَ على

---

(١) البلبال: شدة الهم والوسواس.
(٢) الزَّورة: المرة من الزيارة.
(٣) الحدث: الكثير الحديث الحسن التبيان له.
(٤) التهويم: الشعور بالحاجة إلى النوم.

مَنْ يعتدي على أحد منهما، وما زالوا على هذا الخِلاط المؤكد، والود المصفَّق، حتى خرج مالك بن عباد حليفُ بكر تاجراً في أرض خَزاعة، فاعتدى عليه سَقِيط[١] أحمق، وأرْدَاه قتيلاً، ومِنْ يومها استوقدت نارُ الفتنة، واستطار شرَرُ العِدَاء، وتَرَنّق[٢] ما كان من الوُدّ صافياً، وتغيَّر ما كان من القلوب سَليماً، وكم سعى رجال من كِرام العشائر ليستلُّوا السخائم فلم يفلحوا، وكم تقدّم الوسطاء لإطفاء وَقْدَة النفوس فخابُوا. . واستمر الثّرَى بينهما يَابسا، والجو عابساً مظلماً مكفَهِرًّا، حتى ظَهر محمدٌ رسول الله بمكة، فتلفّتتْ إليه القلوبُ، وشُغِل به الناسُ.

ولكن عادت العداوةُ إلى الظهور، واتخذت سيرتهَا الأولى في الوجود، حينما وقّع صُلْحُ الحديبية، وحينما دخلت خُزاعَةُ في عهد المسلمين وبَكر في عهد قريش؛ إنهما بِحْلفهما على هذا النحو، قد أثارا كامِنَ عداوتهما، وبعثَا رَاقِد حِقْدِهما؛ ومَن يدري ماذا تتمخَّض عنه الأحداث.

وانتهى الرجلُ من حديثه، وإذ همّـوا بالانصراف سمعوا الكَلْب يَنْبَحُ طارقاً غَرِيباً، قالوا: من الطارقُ الغريب في جُنْح هذا الليل؟ ليذهبْ أحدكم فلينظر، لعله ضالٌّ يتخبَّطُ في الطريق، أو لعله عابرُ سبيل يَلْتَمِسُ القِرى والثَّواء[٣].

وذهب رجلٌ وَعَادَ، ومعه عَمْرو بن سالم الخزاعيّ، فسلم عمرو، وجلس تَعْبَان قد أدركه الأيْن[٤]، ونال منه السُّرى في الظلام، وكأنه يحملُ على ظَهرِه أثقالاً من الهمّ، ويَخْفِي بين جنبيه داءً وجِيعاً ماله بَرَاء.

ما بِكَ يا عمرو؟ وما وراءكَ؟ لأمْرٍ ما جئْتَ إلى المدينة، ولأمرٍ ما طرقْتَ بِليل؟ ما هذا الهمُّ الذي يظهر في سُهُوم وجهك، وحَيْرةِ أجفانك، وتقطيع كلامك؟ لَمِن غريبات الأمور، وعَجَب التوفيق أنْ نخوضَ الليلة في أحاديثكم، ونتحدَّث فيما بينكم وبين بَكْر من عِدَاء مستمرّ، وقِتال مُسْتَحِرّ[٥].

---

(١) السقيط: اللئيم في حسبه ونفسه.
(٢) ترنق: تكدر.
(٣) ثوى بالمكان ثواءً: أقام واستقر.
(٤) الأين: الإعياء.
(٥) استحر القتال: اشتد.

قال عَمْرو: إن ما جئتُ فيه الليلة ليس بعيداً عن هذه الحروب ووَيْلاَتها، وليس قصِيًّا[١] عن هذه العداوة وما يجري في سبيلها، لقد بَدَا لنا في العداوة خَطْبٌ جديد، وأضافَنا همّ طَرِيف[٢]، أصابت بَكرٌ فينا غِرَّة[٣] مُصْبَح يوم عند الوَتير[٤]، فأسالت دِمَاءً، ومزَّقَتْ أشلاء، وهَمْمنا أنْ نأخذَ لثأرنا، وننتقِمَ لَقْتَلانا، لولا أنّ قريشاً نقضت العهد، ورَفَدت بكراً بالسلاح، وأمدَّتْها بالرجل والكُراع، فكَثر الجمع، وغلب العدوّ، واستحرَّ فينا القتل، ولقد التجأنا إلى الحرَم نستجير بحرمه، ونحْتَمي إلى جِواره، ولكنهم ما راعوا له مقاماً، ولا حَفِظوا، فيه جِواراً، ولولا من التجأ إلى دَارِ بُدَيل بن ورقاء لَفَنِي مَنْ بمكة من خُزاعة أجمعين.

* * *

وطلعت الشمس، وانتشر الخَبَر مع شُعَاعها في كل مكان: أن قريشاً نقضت العَهْد، وفَجرت في اليمين، وأعانُوا ـ غَدْراً ـ بكراً على خزاعة، ونصروا حليفاً على حَلِيف، فَدلَف الناسُ إلى المسجد يلتمسون رؤيةَ الرسول، أو يتعرفون ما عنده من رَأي، فإذا هو جالس وعَمْرو بن سالم يُنشِدُ بين يديه بصوت متهدِّج ونَبْرٍ متوجع:

يـا ربِّ إنـي نـاشِـدٌ مُحمَّـداً ... حِلْـفَ أبينـا وأبِيـه الأتْلَـدَا[٥]
قـد كنتـم ولـداً وكنَّـا والـدا ... ثمَّـتَ أسلمنـا فلـمْ نَنْـزِعْ يَـدَا
فـانْصُـرْ هَـدَاك الله نصْـراً أعتَـدا[٦] ... ودَعْ عبـاد الله يـأتـوا مَـدَدا
فيهـم رسـولُ الله قـد تجَـرَّدا[٧] ... إنْ سِيمَ[٨] خَسْفاً[٩] وَجْهُه تَرَبَّدا[١٠]

(١) القصي: البعيد.
(٢) الطريق: الحديث.
(٣) الغرة: غفلة في اليقظة.
(٤) الوتير: اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة.
(٥) خُلُق متلد: قديم، الأتلد: القديم.
(٦) عَتَدَ: حضر.
(٧) تجرد للأمر: جَدَّ فيه.
(٨) سام الإنسان خسفاً: أولاه إياه وأراده عليه.
(٩) الخسف: الذل.
(١٠) تَرَبَّد الرجل: تَعَبَّس.

فـي فَيلقٍ[١] كـالبَحْـرِ يَجْـرِي مُـزْبِـدا إنّ قـريشـاً أخلفـوكَ المَـوْعِـدا
ونقَضُـوا ميثـاقَـك المـؤكـدا وجعلـوا لـي فـي كَـدَاء[٢] رَصَـدا
وزعمـوا أن لسـتُ أدعـو أحـدا وهُـمْ أذلٌّ وأقـلُّ عـدَدَا
هـم بيَّتُـونـا بـالـوَتيـر هُجّـدا وَقَتلـونـا رُكَّعـا وسُجَّـدا
فـانْصُـرْ هـداكَ الله نَصْـراً أيّـدَا[٣]

فقال الرسول ﷺ: **«نُصِرتَ يا عَمْرُو بنُ سالم»** ثم توجَّه إلى الله قائلاً: **«اللهم خُذ العيونَ والأخبارَ عن قريش حتى نَبْغَتَهَا في بلادها»**.

نصر مبين

لم تُدْرِك قريش خطأها إلا حين تمزّقت خيوط الظلام، وانفلق عَمُود الصباح؛ نصَرُوا بكْراً على خزاعة، وأعانوا حَلِيفاً على حليف!

ما أوْخَم العاقبة؟ وأسوأ المصير! سيسيرُ الخبَرُ مع الشمس، وينتقل مع الريح، ويبلغ محمداً أنَّ قريشاً فجرَتْ في يمينها، وعبثَتْ بعهدها، وسيلقاها المسلمون ثُلْمَةً ينفذونَ منها، وفرْصةً ينتهزونها، وإنهم ما استَعَدُّوا لحرب، ولا تهيَّؤا لِقِتَال.

انتدَوْا دَارَ واحد منهم، يُقَلِّبُونَ الرأيَ، ويتلمَّسُونَ الخروج، ويتعَرَّفونَ المصير؛ وتشَعّبتِ الآراءُ، وعَلَتِ الأصوات، واضطربت المذاهبُ.

ثم انتهوا إلى رأي لعلهُ يحسمُ الداء، ويدفعُ البلاء: أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة ـ وهو شيخُ قريشٍ وَغِطْرِيفها[٤]؛ إليه تومِئُ الأصابعُ، وتمتدُّ الأعناق ـ قبل أن يعتلن الخبر، وينتشرَ في الأنحاء، وَلْيَأتِ محمداً، فيوثِّقَ العهدَ، ويزيد في المُدّة، فلا يجدُ محمد ـ ﷺ ـ سبيلاً إلى الغزو، أو سبباً لنَقْضِ العهد.

وسافر أبو سفيان، وانعقدت عليه الآمالُ، والتمعَتْ بُرُوقُ الرجاء، سافر عن قريش يحمل أعباءَها، ويُصْلِحُ ما أفسده حَمْقَاها.

---

(١) الفيلق: الكتبة العظيمة من الجيش.
(٢) كداء: موضع بأعلى مكة.
(٣) الأيّد: القوي الشديد.
(٤) الغطريف: السيد الكريم.

وما وصل إلى المدينة حتى رأى حديثَ بكْر وخُزاعة قد ملأ الأسماع، واضطربت به الألسنة، وانتشر في كل مكان، والمسلمون بعدُ قد أخرجوا مكنون سُخطهم، وَرَاشُوا نِبَالَ غيظهم، والأمر على غير ما يحِبُّ ويَرْجُو. . . فَوَجم الشيخ، وارتاع فؤاده، وتوقّعَ الخطب والمكروه.

* * *

والآن؛ أيَعُودُ إلى مكة خائبَ الرجاء طائشَ السهم؟! ولكن فيم كانت مشيختُه في قريش وزَعامتُه فيها؟! أم يَجِدّ ليلقى محمداً ـ ﷺ ـ يَبْسط عندَهُ العُذْرَ، ويَتَحِلُ الأسباب؟! لِيُجَرِّب الثانية، فلعلها أنجحُ الرَّأيين وأحسَنُ الطريقتين!

ويذهب أبو سفيان إلى بيت رسول الله ﷺ، ويقفُ في ساحته، حائرَ الطّرْف، مُبَلْبَل الرأي، موزَّع الفؤاد، ثم يتحدث إلى بنته أم حبيبة أم المؤمنين، فَتَغْلظُ له في القَوْل، وتردّه رَدًّا غير كريم، فيخرج متعثراً في ذيل اليأس، مُتَلفِّعاً بمئزَر الصَّغار.

ثم يلتقي برسول الله ﷺ، فما يُصِيبُ عنه إلا سُخْطاً وامتعاضاً، وما يلقى إلا صَدًّا وإعْرَاضاً، ويرجُو الشفاعةَ من أبي بكر، فلا تَعْدُو آماله أحلامَ نائم، ويلتمسُ الْخَيَر عند عُمَر، فلا يظفر عنده إلا بِقَلْبٍ حانق، وسخط هائج، ثم ينتهي الأمرُ عندهُ إلى خَيْبَة الرجاء، والْتِوَاء الطريق؛ فيعود إلى مكة مُنْذِراً أهلها أمراً شَفّت عنه الدِّلَالَات، وأسفَرَتِ العلامات.

* * *

أما رسولُ ﷺ فقد أمر المسلمين بالاستعداد والتهيؤ، وأعلن في المسلمين: مَنْ كان يؤمِنُ بالله واليوم الآخر فليشهَدْ رمضان بالمدينة.

وأُسْرِجَتِ الخُيول، وَأُعِدَّ السلاحُ والكُرَاع[1]، وَوَفَدَتِ القَبَائلُ من مُزَيْنة وغِفَار، وأشجع وسُليم، والتأمَ جيشٌ من المسلمين، في جَمْعٍ من قبل لم يعرَف، وحماس لم يُؤْلف، وصدرَ عن رسول الله ﷺ أمرٌ كريم: أن يحفَظَ المسلمون أسرارَهم، ويَضِنُّوا بمخبَّآتِ ضمائرهم؛ فلعلهم يُصيبون قريشاً على غير استعداد، ويدخلون مكة من غير كَيْدٍ

(١) الكُراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

أو عناد؛ فرسول الله حريصٌ على ألا يَسْفِكَ في البلد الحرام دماً، ولا يُزْهِقَ رُوحاً، ولا يثيرَ حَرْباً، ولا يذكي ضِرَام عِدَاء.

وساروا جميعاً تُرفْرِفُ فوقهم العُقَاب[١]، وتَكْلَؤُهم رعايةُ الله. ويطلعُ عليهم في الطريق رجلٌ مَهِيب الطلعة، أبْلَج الغرَّة، طويلٌ بادِنٌ، في نَفَر من الناس تبيّنوهُ، فإذا هو العباس بن عبد المطلب.

قال: يا رسول الله؛ لقد علمتَ أني أسلمْتُ من عهد، ولكنني ما استطعت أن أجْهَر بالإيمان، وما استطعتُ أن أصبر بعد ذلك على الكتمان، وقد خرجتُ مهاجراً إلى الله وإليكَ بنفسي، وها هم أولاء زوجي وولدي.

قال رسول الله ﷺ: «**مرحباً بك يا عمّ، لِيَهْنِئكَ الإسلام؛ ولْيُبارك لك الله في الإيمان؛ أرسل إلى المدينة أهلَكَ وَوَلَدَك، وارجع معنا إلى مكة حتى تشهدَ ما يكُونُ بيننا وبين قريش**».

ورمى العباسُ ببصره في الجيش، فإذا بقوم مِلْء السمع والبصر، والسهل والجبل؛ فقال: وارحمة لقريش! إنْ دخل هذا الجيش مكة عُنْوَةً، فإنه سوف لا يُبْقي في قريش طفلاً ولا كهلاً؛ ولا امرأة ولا رجلاً.

وخافَ العباس، وأشفق من مصير قريش؛ فخرج إلى الصحراء لعله يلقى خطّابا أو لبّاناً أو ذا حاجة؛ فيحمِّله رسالتَه إلى قريش: أن يحضر كبراؤها وزعماؤها إلى محمد يُؤمنونَه على نفوسهم؛ ويعاهدونه على تسليم حَرَمِهم؛ فيكُون هذا أحْقَنَ لدمائهم وأبقى لحياتهم.

وبينا هوَ يَشِيم ويَنْظُر؛ ويتطلع ويتنَوَّر؛ سمع هَمْسَ رجلين يتراجعان: قال أحدهما: تلفّتْ إلى هذه النار؛ وأدِرْ طَرْفكَ فيها؛ ثم ارجع البصر إلى هؤلاء العسكر؛ فإني ما رأيتُ نيراناً قبلُ كهذه النار؛ ولا جنداً أحشد من هؤلاء الجنود.

قال الثاني: هذه والله خُزَاعة قد حَمَّشَتْهَا[٢] الحرب؛ وهاجها يُوْم الوَتير.

---

(١) العقاب: اسم طائر من كواسر الطير قوي المخالب. اسم راية رسول الله ﷺ.

(٢) حَمَّش الناس: حرضهم على القتال.

قال الأول: اسكُتْ؛ فواللهِ لَخُزَاعة أذلُّ نفوساً؛ وأضعفُ جنوداً من أن تكُونَ هذه نيرانها وتلك جنودها.

وبينا الثاني يتهيَّأُ للكلام وجد العباسَ بينهما. قال العباس: عجباً! أأنتَ أبو سفيان! ما جاء بك في هذا الظلام يا أبا حنظلة؟ قال: هَمُّ العشيرة؛ وأفداحُ[1] القبيلة، وَرُزْء[2] الزمان... لقد خَرَجت أتَحَسَّس خبرَ ابن أخِيك، وأتطلّعُ طِلْعَ المسلمين وقد حَزَرَت قريش الحرب، وتوقّعَتِ الشَّر من يوم أن انتقصَ العهدُ وفجرنَا في اليمين.

قال العباس: ويْحَكَ يا أبا سفيان! هذا محمدٌ رسول الله قريبٌ منكَ، في جند كعديد الرمل، ولئن ظفِر بكَ لأخشَيَنَّ أن تضربَ عنقك، وشديدٌ عَلَيَّ أن أرى رأس قريشٍ مجدَّلاً، وشيخها مقتولاً. اركبْ معي هذه البغلة، لعلِّي آتي بك رسول الله أطلبُ لك الأمان، وأستوهبُ منه الحياة.

* * *

وشاهد الناسُ أبا سفيانَ رَدِيفاً[3] للعباس، ورآه عمر بن الخطاب، فوثبَ على قدمَيْه، وقال: أبا سفيان عدوّ الله! الحمدُ لله الذي أمْكَنَ منك من غير عقد ولا عهد! وانطلقَ يعدُو إلى رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان، قد أمكَنَ الله منه من غيرِ عقد ولا عهد... فدعني أضرِبُ عُنقَهُ، ليخبو ضِرَامُ غيظي، وتهدأَ ثائرةُ ضلوعي...

قال العباس: يا رسول الله، إني قد أجَرْتُ أبا سفيان، وأعطيته الأمان، وهيهات للرسول الأمين، الكريم الحليم ـ ﷺ ـ أن يَرُدَّ جِوَارِي، ويرجعني في أماني.

قال عمر: ذاك يا رسول الله شيخُ قريْش يوم بدر، ومُحَرِّضها يوم أُحُدٍ، وزعيمها يوم الأحزاب، وقد أمكنَ الله منه بعد عَهْدٍ نقضوهُ وحِلْفٍ ضيَّعُوهُ، وإن في قتله لراحةً للمسلمين، وشفاء لما في الصدور.

---

(١) أفداح جمع فادحة: النازلة.
(٢) الرزء: المصيبة.
(٣) الرديف: الراكب خلف الراكب.

قال العباس: على رِسْلِك يا عمر، فوالله لو كان من قومك من بني عديّ ما قلتَ هذا، ولكنك قد عرفت أنُه من رجال عبد مناف.

قال عمر: لقد جاوَزْت الحدَّ يا عبَّاس، فوالله لساعةُ إسلامك يوم أسلمتَ أحَبُّ إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أن عَرَفت أن إسلامك كان أحبَّ إلى النبي من إسلام الخطاب لو أسلم...

وهمَّ العبَّاس بالكلام؛ ولكن رسولَ الله حجز بينهما حَجْزاً كريماً، وفصل بينهما فَصْلاً حكيماً، ثم قال: «**يا عبَّاس، اذهب به إلى رحلك، وَدَعْهُ يقضي عندك هذا المساء، ثم ائتني به الغداة**».

وأخذ العبَّاسُ بيَدِ أبي سفيان، وانطلقَ به إلى قُبَّتِه، وباتَ مُحَدِّثاً لهُ حتى السَّحَر، وهو يَرْجُو أنْ يُطْمِعه في الإسلام، ويَأفِكه[1] عن عبَادة الأصنام؟!

ولما نهض من نومه، رأى القوم يقفون خاشعين، ويُتَمْتِمُونَ بعبارات لا يفهمها؛ ثم يركعون بظهورهم، ثم يعفِّرون بالتراب وجوههم، فقال: ما يفعل هؤلاء يا أبا الفضل؟ فقال: إنها الصلاة، قم يا أبا سفيان وتطهَّرْ؛ وانطلق معي إلى رسول الله. فتطهر أبو سفيان متلكِّئاً[2]، وقام مُتثاقلاً؛ وذهباً حتى جلساً بين يدي الرسول.

قال الرسول: «**وَيْحَك يا أبا سفيان! ألَمَ يأنِ لك أنْ تعلمَ أن لا إلٰه إلا الله؟**». قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمَك وأوصلك! والله لقد ظننت لو كان مع الله إلٰه غيره لقد أغْنَى عني شيئاً.

قال: «**وَيْحَك يا أبا سفيان! ألم يَأنِ لك أن تعلمَ أني رسول الله؟**». قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأوصلك! أما هذه والله فإنَّ في النفس حتى الآن منها شيئاً!

قال العباس: يا أبا سفيان، لقد وضحَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَين، فإن كان على عينيك غمامةٌ فارْفَعْها، وإن كان على قلبك غشاوة فمزِّقها، وأسلم إبقاءً على حياتك، وَحِرْصاً على دُنياك وآخرتك.

---

(١) أفك فلاناً عن الشيء: صرفه.

(٢) متلكئاً: متباطئاً.

فاضطرب أبو سفيان، ثم تلعثم، ثم تردّد، ثم قال: شهدت أن لا إلٰه إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله.

وابتهج الرسولُ والتمع البِشْرُ في وَجْه العباس، ثم أخذ بيده، وعلمه الوضوءَ والصلاة، وَبَصَّرَهُ بمبادىء الإيمان.

ثم عاد العباس إلى الرسول ﷺ يقول: يا رسولَ الله، إنَّ أبا سفيان ـ كما أعْلَمُه ـ رجل يحب الفَخْر، وتميل به الْخُيلاء[1]، وإنه حتى هذه الساعة لا يزال الإسلامُ غريباً في قلبه، والعقيدة غير مستقرة في نفسه؛ فاجعَلْ لهُ شيئاً يَقْضِي به حاجةَ نفسه من الزَّهْو والمخيلة، ويجعله في الإسلام أثبتَ قَدماً، وَأكبَر يَقيناً...

قال رسول الله ﷺ: «**نَعَمْ، مَنْ دخل دارَ أبي سفيان من مكة فهو آمِن، ومن أغلق عليه بَابه فهو آمِن، وَمَنْ دخلَ المسجدَ الحرام فهو آمِن**».

ويسمع أبو سفيان قولَ رسول الله ﷺ، فيذهب صائحاً في عَرَصات مكة: يا معشر قريش، قد جاءكم محمد بما لا قِبَلَ لكم به، وَمَنْ دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن... فقامت إليه زَوْجُه هند وقالت: اقتلوا الْحَمِيتَ[2] الدَّسم الأحْمَس[3]، قُبِّحْتَ مِنْ طَلِيعَة قوم! قال: يا قوم، لا تغرَّنكم هذه عن أنفسكم! وقد نصحْتُكُم، وما أردتُ إلا حقنَ دمائكم، وَحِفْظَ أرواحكم، ولقد جاءكم محمد بما لا قِبَلَ لكم به.

فارتاع القوم وقالوا: ويلك! وما تُغْني عنا دَارُك؟! قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمِن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمِن؛ فَهُرِع الناس إلى المسجد والدُّور.

ودخل رسول الله ﷺ مكَّة حانياً ظَهْرَه شكْراً، غاضًّا طَرْفَه حمداً، لابساً عمامته السوداء مُعْتَجراً[4] شُقّة بُرْد حمراء، لم يَلْقَ سيفاً قائماً، ولا رجلاً شَاكياً، وهو يتلو: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ

---

(١) الخيلاء: التكبر والعُجب.
(٢) الحميت: السمين.
(٣) الأحمس: من لا خير فيه.
(٤) معتجراً: لافاً عمامة.

إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾[1].

ثم توجه إلى البيت طائفاً، وذهب إلى الرُّكْنِ مُسْتلماً، واحتشد الناسُ في المسجد، وتدافعوا ينظرون ما يقول محمد وما يصنع...

هذا الذي أخرجوه وَصَحْبَه من ديارهم، وافتتُوا في إيذائهم، ونالوا من عافيتهم وراحتهم، وهو ذا قد عاد اليوم ظافراً بهم، قادراً عليهم، ليت شِعْرهم ماذا سيقول؟ وليت عِلْمهم ماذا يصنع؟

ووقف الرسولُ ﷺ على شَرَف[2] في المسجد، وتهيَّأ للقول، وقال: «**يا معشر قريش، ما تظنُّون أني فَاعِلٌ بكم**»؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «**اذهبوا فأنتم الطُّلقَاء**»!

---

(١) سورة: الفتح، الآيات: ١ ـ ٧.

(٢) الشَّرف: الموضع العالي يشرف على ما حوله.